١٣

المراضع

أقبلَ المراضع إلى مكةَ عجافًا نحافًا، تحملهنَّ حُمرٌ عجافٌ نحاف، ويصحبهن أزواجهن قد مسهم الضر، وأعياهم الكسب، واشتدت عليهم السنة، وأجدّبت بهم الأرض، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلاً. وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة، يلتمسون الرضعاء أبناء السادة والمترين فى قريش، ويبتغون بذلك فضلاً من مال، ونافلةً من نعيم، وحظًا من هذا البر الذى تطمع فيه المراضعُ عند أهل الرضعاء. فلما القوا رحالهم، انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء. وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقون سراةَ الناس من قريش، فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم، ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة فى تلك البادية النائية، بادية بنى سعد بن بكر. وما هى إلا طوفةٌ فى الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضعُ موفورات محبورات، قد وجدت كلّ واحدة منهن رضيعًا من أسرة كريمةُ مؤسرة، فامتلأت يدها بالمال، ونفسها بالأمل، وقلبها بالغبطة والأمن على قوت العيال، إلا حليمة بنتَ أبى ذُؤيب؛ فإنها عادت إلى زوجها كئيبة محزونة لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذى يصيح فى غير انقطاع، ويبكى فى غير هدوء، لشدة ما مسهُ من ألم الظمأ والجوع.

ولقى الإعرابى امرأته الشابة محزونًا مثلها، كئيبًا مثلها، ولا يؤذيه ما يحس من الجوع والظمأ امرأته البائسة. قال: إنى لأرى أترابك من المراضع يرجعن موفورات محبورات يحملن الرّضعاء، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعًا إلا هذا الطفل؟ ألعلَّك قد دللت الناس على مكاننا من البؤس وحظَّنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذى لا ينقطع له صياح! ألعلَّك قد أيأست الأمهات وأخَفْتِ الآباء ألا يلقى أبناءهم عندك ما يرويهم من ظمأ أو يشبهم من جوع! ليتنى لم أنحدر مع الناس إلى المسجد، وليتنى بقيتُ هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاء ولا شكاة، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤسًا ولا ضرًّا! قالت: والله ما صد عنى الآباء والأمهات، ولقد أسكت هذا الطفل فما بكى ولا شكا، وما أحس أحد على ولا عليه ضرًا أو شرًا، وإنما سددت أنا عن رضيع صد عنه الأتراب من قبلى. قال الأعرابى: وفيم صدكن عنه واجتنابكن له؟ قالت: يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه، إنما هو إلى أمه وجده. وما تصنع أمه وما يصنع جده، وماذا تنتظر من بر الأمهات بالمراضع، ومن بر الجدود بالحفَدة وإنهم لكثير! قال صدقت، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بنى سعد! وإنى لأجد فى نفسى إشفاقًا على هذا اليتيم ورحمةً له، ولكن ماذا نصنع به فى تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من بر أهله ما يقيمه ويقيمنا ويُصلح من حاله ومن حالنا! قالت: لقد رأيته فأحببته، ونظرتُ

إليه فَرَفقتُ له. ولقد آنست من أمه دعةً ولينًا. ولقد نازعتنى نفسى إلى أن أحمله لولا أنى أشفقتُ مما تقول، ولولا أنى ذكرت الجدب وشدة السنة وانقطاع المادة، وأشفقت عليه مما نحن فيه. قال الأعرابى: فَسنقْفلُ إذًا كما أقبلنا ويقفل القوم راضين! وإنى والله يا ابنة أبى ذؤيب ما أدرى أتُبلغنا آتانُنا وشارفُنا[1] ديار بنى سعد، وإنك لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدودة، وأن شارفنا ما تَبضُّ قطرة من لبن. قالت؛ لنقم فإن الأطفال يولدون، ولعل الله أن يرزقنا بين اليوم وغ٨د رضيعًا نجد عند أهله ما يُرضينا.

وهم المراضع بالقفول، وأخذت بنت أبى ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة، يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها، ومن قفولهن وتخلفها. يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها، ومن قفولهن وتخلفها. وأخذ الأعرابى ينظر إلى رفاقه يشدون الرحال على المطايا، ويحملون النساء على الأتُن، فيؤذيه ذلك وَيغيظه، ولكنه يُخفى ما يجد من الغيظ ويظهر التجلد والصبر. حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا فى الطريق وبَعُدُوا عن مرمى العين، نظر الرجل إلى امرأته، ونظرت المرأة إلى زوجها، ونظر الزوجان إلى ابنهما واستمعا لبكائه، وإذا هى تقول لزوجها: ما أدرى! لعلى لم أحسن حين جاربتُ أترابى وأعرضتُ عن هذا اليتيم، وإن نفسى لتنازعنى إليه، وإنّ قلبى ليعطفنى عليه، وإنى لأحس كأنه يدعونى، وإنى لأشعرُ كأنى لا استطيع عنه صبرًا، وإنى لأرجو أن استجبتُ لهذا الدعاء الخفى أن يكون الله قد قَدَّر لنا خيرًا وآثرنا ببعض ما نحب! قال: فلا عليك يا ابنة أبى ذؤيب! اذهبى إلى يتيمك فخذيه؛ فإنى أكره أن يَرحلَ القومُ ونبقى، وأن يصلوا على ديار بنى سعد، فيتحدثُ المراضعُ أنهنّ قد ظفرن بالرضعاء، وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفت عنك وزَهدتْ فيك.

وتنهض بنت أبى ذؤيب فتعود على آمنة فتعرضُ عليها إرضاعَ الطفل، وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن، وعلى وجهها آيات حزن عميق،وفى صوتها بقية من بكاء، وآمتُها بركةُ تعينها على الإباء وتحرضها على الامتناع. ولكن ابنة أبى ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلئ حبًا له، وإذا هى تحس أنها مدفوعةٌ إليه دفعًا، وإذا هى تُسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من صدرها، وإذا الطفل يلتمس الثدى كأنما كان منه على ميعاد، وإذا هو يشرب حتى يَروَى، وإذا بنت أبى ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل، وإذا آمنة تستجيب لها، وكيف تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن إرضاعها له ما رأت! لقد أصبحت هذه الظَّئرُ له أمًا. قالت آمنة: خذيه ولا تراعى؛ فإنى لأرجو ألا تجدى منه خيرًا؛ فقد حملته فما وجدت له ثقلاً، ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يُحس النساء قليلاً ولا

---

(١) الأتان: أنثى الحمير. والشارف من النوق: المسنة.

كثيرًا. ولولا غاشية الحزن التى غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به امرأة من دهرها. ولكن الحوادث تحدث والخطوب تُلِم والآمال تُقطع وقد كان يرجى أن تتصل، والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس! ولقد وضعتُ هذا الصبى فما عرف صاحباتى على وعليه وشيئًا مما تعودن أن يعرفن على الأمهات والولدان. وإنك لتنكرين يا ظئرُ لو تسمعين. قالت حليمة: وماذا أسمع، وماذا أنكر؟ قالت آمنة: لم أكن تلك الليلة فى دار من دور قريش، وإنما كنت فى مكان لم يألفه الناس: كنت فى بحر من النور كله رحمة وبر ورضوان، وما لك لا تنكرين هذا يا ظئرُ وقد أنكرته أنا وأنكرته صواحبي! ومالك لا تعجبين يا ظئر وقد عجبتُ وعجبت صواحبى وعجب جده الشيخ! سلى حاضنته هذه تنبئك بما رأت وما سمعت. سلى من شئت من نساء بنى هاشم ورجالهم تعلمى أن لابنى هذا اليتيم شأنًا ليس لغيره من أبناء الأغنياء وأهل اليسار. لا تراعى يا ظئر؛ فإنك تحلمين وليدًا كريمًا لأب كريم، وجد كريم. ثم انهلت من عينها دموع غزار، وقالت فى صوت يقطعه البكاء: لا تيأسى يا ظئر؛ فإن معروفنا على قلته سيصل إليك، ورُبّ قليل خير من كثير. قالت حليمة: وقد رقّ قلبها، وجادت عينها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات: لا بأس عليك يا ابنة وَهب! فإنى والله ما استطعت صبرًا على هذا الصبى منذ رأيته. وإنى والله ما أدرى ما الذى عطفنى عليه حتى رجعت إليك آخذه منك. وقد كنت أستطيع القفول، وقد كنت أستطيع المكث ف يبلدكم هذا يومًا أو أيامًا؛ فالأطفال يولدون، وسَراةُ قريش فى حاجة إلى المراضع كل يوم، ولكنه والله أمرٌ يراد. وانصرفت حليمة بابنها الجديد راضية مسرورة، قانعة بما زودتها به آمنة من البر والمعروف حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابى لقيها باسم الثغر، مُشرقَ الوجه، سعيدًا أن لم تَعدْ إليه صفرَ اليدين. ولم يكن ينظر إلى الطفل حتى انطق لسانُه، وإذا هو يقول لامرأته: إيه يا ابنةَ أبى ذُؤيب! ما رأيتُ كاليوم وجهًا مشرقًا يفيض منه البشر؛ إنى والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير.

وينهض الأعرابى إلى شارفه يلتمس فى ضَرعها الجاف قطرات من لبن يَبُلّ بها ظمأ امرأته، وينقع بها بعض غُلته. فما أسرع ما يأخذه عجبٌ لا ينقضى حين يَرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته، وفوق ما يريد وما تريد امرأته. وينظر الأعرابى فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يُرويه ويرضيه، وإذا وجههُ الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويُضيء، وإذا ابتسامةٌ حلوة طاهرة قد ارتسمت على ثغره البريء، وإذا هو يقول لامرأته: تَعلمى يا ابنة أبى ذؤيب أنك قد حمل نَسمة مباركة!

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها، وينهض الأعرابى إلى شارفه فيمتطيها، ويرميان بنفسيهما فى الطريق يلتمسان الركب من بنى سعد، والركب بعيد قد دُفع به فى الطريق طويلة نائية. ولكن الأعرابية تجدُ من أتانها نشاطًا وحدة، ولكن الأعرابى يجدُ

من شارفة قوة ومَرحًَا، وهما يمضيان وكأنهما تُطوى لهما الأرض طيًا. ثم يقول الأعرابى لامرأته مُدى عينيك يا ابنة ذؤيب، أترين شيئًا؟ قالت: أى والله أنى لأراهم، وإنهم لأدنى من مرمى العين. وما هى إ أن يبلغ الأعرابى جماعة بنى سعد، فيعجبُ الناسُ بأمر حليمة وقد أدركتهم فى غير جهد ولا كد، والأمدُ بعيد. والطريقُ شاقة. ويسأل الناس حليمة عن هذا الرضيع الذى تحمله، فإذا أنبأتهن بنبئه أظهرنَ لها الرقة والرثاء، وأضمرن التيه والكبرياء. ويمضى الركب آخذًا بأطراف الحديث، وإن حليمة لتسبق أترابها حتى تُعييهن، وإن أترابها ليقلن لها: أهذه أتانُك يا ابنة أبى ذؤيب التى أقبلت بك إلى مكة؟ فتقول: هى والله أتانى ما غيرتها. فيقلن: أربعى علينا[1] يا ابنة أبى ذؤيب؛ فما رأينا كاليوم مرحًا ولا عَدوًا.

ويبلغ الركب ديار بنى سعد، ويثوب المراضع إلى بيوتهن، ويستأنفن حياةَ أهل البادية فى أرض مُجدبة قل فيها الرعى والماء، وكثر فيها البؤس والشقاء. وَغَنُم حليمة ترعى كما ترعى الغنم، ولكنها تروح مِلاء حُفّلا لا يظمأ أصحابها ولا يجوعون، وتروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضبة، لا تكاد تَبض بما يبل الريق. وهم يقولون لرُعاتهم: ويلكم! ارعو حيث ترعى غنمُ ابنة ذؤيب. فيقول الرعاة: والله إنا لنرعى حيث ترعى، وإنها والله لا تجد أكثر مما نجد، ولكنها تروح ملاء ونروح بغنمنا كما ترون، لا تُغنى من ظمأ ولا جوع. فيقولون: إن لابنة أبى ذؤيب لشأنًا. وتَنعم حليمة وينعم أبناؤها بحياة راضية هادئة، وينمو رضيعها ويزكو، وتقضى هذه الأسرةُ عامين راضيين لا تعرف فيها مشقة ولا جهدًا، ولا تجد فيها ألمًا ولا سقمًا، وإنما هى أيامٌ وليال تَطردُ ويمضى بعضها فى أثر بعض لا كدَرَ فيها ولا تنغيص حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حليمةُ وزوجها فإذا الطفل قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون، لم يكن يُتم الثانية وكأنه ابن أربع، والقوم عليه حِرَاص، ولكنهم يؤدّونه على ذلك إلى أمه كارهين.

ثم تهم حليمةُ أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبد المطلب، وأرضتها آمنةُ وعبد المطلب، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حُبًا له وَحدَبًا عليه، ورغبة فى استبقاء ما وَجدت فى استصحابه من خير؛ فتلح على آمنة أن ترده معها إلى البادية، هناك حيث الهواء النقى، والسماء الصافية، والحياةُ الهادئة البريئة، هناك حيثُ لا مرض ولا وَباء ولا فساد. وتجيبها آمنة إلى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها، وضحت بلذة الأمومة فى سبيل تَنشئ أيهما تنشيئًا صالحًا. وهل عرفت آمنة إلا التضحية! وتمضى حليمةُ بالصبى راضية، وتبقى آمنة فى مكة محزونة. وتنظر بَرَكةُ إلى حليمة نظرات فيهن الحسد. وتنظر بركة إلى آمنة نظرات فيهن اللوم.

---

(١) اربعي علينا، أي ارفقي بنا وانتظرينا.

قلتُ لمحدثى: فكيف قَضى الصبى أيامه بعد ذلك فى البادية؟ وكم أقام عند ظِئره فى ديار بنى سعد؟ قال: إن لهذا لحديثًا عجيبًا، مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصه عليك فى تلك السذاجة الحُلوة الأخاذة التى كان يَقصُّها مكحول على أهل الشام. فاسمع حديث مكحول فإنك واجدٌ فيه مثلَ ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع.

قال مكحول: حدثنى سَداد بن أوس قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل شيخٌ من بنى عامر، وهو مِدْرَةُ قومه وسَيدُهم، شيخ كبير يتوكأ على عصًا، فمثل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قائمًا، ونسبه إلى جَده فقال: يا بنَ عَبد المطلب، إنى أنبئتُ أنك تزعم أنك رسولُ الله إلى الناس، أرسلك بما أرَسلَ به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. ألا وأنك فوّهتَ بعظيم! وإنما كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى إسرائيل، وأنت ممن يعبدُ هذه الحجارة والأوثان، فمالكَ وللنبوة؟ ولكن لكل قول حقيقة؛ فأنبئنى بحقيقة قولك وبدء شأنك. قال: فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم بمسألته، ثم قال: "يا أخا بنى عامر! إن لهذا الحديث الذى تسألنى عنه نبأ ومجلسًا، فاجلس". فثنى رجليه ثم برك كما يبرُك البعير. فاستقبله النبى صلى الله عليه وسلم بالحديث فاقل: "يا أخا بنى عامر! إن حقيقة قولى وبدء شأنى أنى دعوةُ أبى إبراهيم وبُشرى أخى عيسى بن مريم، وأنى كنتُ بكر أمي، وأنها حملت بى كأثقل ما تحمل، وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثِقْلَ ما تجد. ثم إن أمى رأت فى منام أن الذى فى بطنها نور. قالت: فجعلتُ أتبعُ بصرى النورَ، والنورُ يسبق بصري، حتى أضاءت مشارقُ الأرض ومغاربها. ثم إنها ودلتنى فنشأت. فلما أن نشأتُ بُغِّضت إلى أوثانُ قريش وبُغضَ إلى الشعرُ. وكنتُ مُسترضعًا فى بنت ليث ابن بكر. فبينا أنا ذات يوم مُنتبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان نَتقاذف بيننا بالجَلَّة[1] إذ أتانا رَهطٌ ثلاثة معهم طَستٌ من ذهب مُلئ ثلجًا، فأخذونى من بين أصحابي، فخرج أصحابى هُرَّابًا حتى انتهوا إلى شفير حتى انتهوا إلى شفير الوادى، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا: ما أربكم[2] إلى هذا الغلام فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش وهو مُسترضعٌ فينا من غلام يتيم ليس له أب؟ فما يردّ عليكم قتلُه؟ وماذا تُصيبون من ذلك؟ ولكن إن كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جوابًا، انطلقوا هُرَّابًا مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، فعَمَد أحدهم فأضجعنى على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم

---

(١) الجلة: البعر.

(٢) الأرَب (بفتح الهمزة والراء وبكسر الهمزة وسكون الراء): الحاجة

شق ما بين مَرِق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسًّا، ثم أخرج أحشاء بطنى، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعمَ غسلها، ثم أعادها مكانها. ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه: تَنحّ فنحاه عنى، ثم أدَخل يدّه فى فأخرج قلبى، وأنا أنظرُ إليه، فصدَعه، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها، ثم قال بيده[1] يمنة منه كأنه يتناول شيئًا، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه، فختم به قلبى فامتلأ نورًا، وذلك نُورُ النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا. ثم قال الثالث لصاحبه: تنحّ. فَتنحَّى عنى، فأمرّ يده ما بين مَرق صدرى إلى منتهى عانتى فالتأم ذلك الشق بإذن الله، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زنه بعشرة من أمته، فوزنونى بهم فَرَجحتهم. ثم قال: زنة بمائة من أمته، فوزنونى بهم فَرجَحتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنونى بهم فرجحُتهم. فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرَجحهم. قال: ثم ضَمونى إلى صُدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عينى. ثم قالوا: يا حبيب! لا تُرَعْ! إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك. قال فبينا نحن ذلك إذا أنا بالحى قد جاءوا بحذافيرهم، وإذا أمى – وهى ظئر – أمام الحى تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه! فانكبوا على فقبلوا رأسى وما بين عينى، فقالوا: حبذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظئري: يا وحيداه! فانكبوا على فَضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد! إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض. ثم قالت ظئرى: يا يتيماه! استضعفتَ من بين أصحابك فقُتلت لضعفك! فانكبوا على فضمونى على صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى وقالوا حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير! فوصلوا بى إلى شفير الوادي. فلما بَصُرت بى أمى، وهى ظئرى، قالت: يا بنى ألا أراك حيًّا بعدُ! فجاءت حتى انكبت على وضمتنى إلى صدرها. فو الذى نفسى بيده إنى لفى حجرها وقد ضمتنى إليها، وإن يدى فى يد بعضهم، فجعلت ألتفتُ إليهم، وظننتُ أن القومُ يُبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم. يقول بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لمَمٌ[2] أو طائفٌ من الجنِّ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويُداويه. فقلتُ: يا هذا، ما بى شىء مما تذكر؛ إن إرادتى سليمة وفؤادى صحيح ليس به قَلَبةٌ[3]. فقال أبى – وهو زوج ظئرى – ألا ترون كلامه كلامَ صحيحٍ! إنى لأرجو ألا يكون بابنى بأس. فاتفقوا على أن يذهبوا بى إلى الكاهن، فاحتملونى حتى ذهبوا بى إليه. فلما قصوا عليه قصتى قال: اسكتوا حتى أسمع من

---

(١) قال بيده: أهوى بها، وقال برأسه: هزه. (عن أساس البلاغة).

(٢) اللمم (بالتحريك): طرف من الجنون.

(٣) القلبة (بالتحريك): الألم والعلة.

الغلام فإنه أعلمُ بأمره منكم. فسألنى فاقتصصتُ عليه أمرى ما بين أوله وآخره. فلما سمع قولى وثبَ إلىّ وضمنى إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه! فَواللات والعزى لئن تركتموه وأدركَ ليذلنَ دينكم وَليسفَّهن عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم وَليأتينَّكم بدين لم تسمعوا بمثله قط. فعمدت ظئرى فانتزعتنى من حجره وقالت: لأنت أعته وأجنُّ من ابنى هذا! فلو علمتُ أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، فأطلب لنفسك من يقتلك فأنا غير قاتلة هذا الغلام. ثم احتملونى فأدُّونى إلى أهلى... فأصبحتُ مُفزعًا مما فُعل بى، وأصبح أثرُ الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشراك[1]. فذلك حقيقة قولى وبدء شأنى يا أخا بنى عامر". فقال العامرى: أشهد بالله الذى لا إله غيرُه إن أمرك حقٌ. فأنبئنى بأشياء أسألك عنها. قال سَلْ عنك – وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يقول للسائل: سَلْ عما شئتْ وعما بدا لك، فقال للعامرى يومئذ: "سَلْ عنك" لأنها لغة بنى عامر، فكلمة بما عَلم – قال له العامري: أخبرنى يا بن عبد المطلب ما يَزيدُ فى العلم؟ قال: التعلم. قال: فأخبرنى ما يَدُلّ على العلم؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: السؤال. قال: فأخبرنى ماذا يزيد فى الشر؟ قال: التمادى. قال: فأخبرنى هل ينفع البر بعد الفجور؟ قال: "نعم: التوبةُ تَغسل الحوبة[2]، والحسنات يُذهبن السيئات، وإذا ذكرَ العبدُ ربّه عند الرخاء أغاثه عند البلاء". قال العامرى: وكيف ذلك يا بن عبد المطلب؟ قال: "ذلك بأن الله يقول: لا وعزتى وجلالى لا أجمعُ لعبدى أمْنين، ولا أجمع له أبدًا خوفين: إنْ هو خافنى فى الدنيا أمننى يومَ أجمع فيه عبادى عندى فى حَظيرة القُدسُ فيدومُ له أمْنُه، ولا أمَحقُه فيمن أمحق. وإن هو أمننى فى الدنيا خافنى يوم أجمعُ فيه عبادى لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفُه. قال: يا بن عبد المطلب، أخبرنى إلام تَدعو؟ قال: "أدعو إلى عبادة الله وَحَدهُ لا شريك له: وأن تخلع الأنداد وتكفر بالات والعزّى، وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن، وتَصوم شهرًا من السنة، وتؤدى زكاة مالك يطهرَّك الله بها ويطيَّب لك مالَك، وتحج البيت إذا وجدت له سبيلاً، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت، وبالجنة والنار. قال: يا بن عبد المطلب، فإذا فعلتُ ذلك فما لي؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: "جنات عدن تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جَزاءُ مَنْ تَزَكى. قال: يا بن عبد المطلب، هل مع هذا فى الدنيا شيء فإنه يُعجبنى الوطاءةُ من العيش؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: "نَعمْ النصرُ والتمكن فى البلاد. قال:

---

(١) الشراك: أحد سيور النعل التي تكون على وجهها.

(٢) الحوبة (بفتح الحاء وضمها): الإثم.

فأجابَ وأناب[1] قلت لمحدثى: إن هذا النبأ لَعجيب! فمن لهذا الشيخ العامرى بما كان يَعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء؟ قال: كان كثير من هؤلاء العرب يَلقون اليهودَ ويلقون النصارى، فيعلمون منهم عِلمَ الأنبياء، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم فى غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونَصرانية النصارى، فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك.

قلت لمحدثى: فكيف انتهى حديث مكهول إلى أهل الشام؟ قال أمَا علمت أن شَداد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطرًا طويلاً من حياته فى بيت المقدس يُعلِّم الناس ويحدثهم، وَعده بذلك النبى نفسه؟ فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجود بنفسه فقال: مالك يا شداد؟ قال: ضاقت بى الدنيا. فقال: "ليس عليك، إن الشام سيفتح، وبيت المقدس سيفتح، وتكون أنت وولدُك من بعدُ أئمةً فيهم إن شاء الله تعالى[2]".

(١) تاريخ الطبري جزء ٢ من صفحة ١٢٦ على ١٢٨ طبعة القاهرة.

(٢) الإصابة جزء ٣ صفحة ١٩٥ طبعة المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٢٢٥.

obeikandl.com